

رسالة من ميدان الحرب في عدن الدكتورة اشواق عوض ماطر

كبيرة إستشاري أمراض الاطفال والمدير بالنيابة في مستشفى مصافي عدن

جالسة انظر الى السماء التي تحولت سحبها سوداء. كان حريق المصفاة مستمراً، وهناك نداءات باخلاء المنطقة لكارثة بيئية و كارثة قادمة، ولكننا فضلنا البقاء ليس تحدياً، ولكن هو ذلك الاحساس عندما تقرر ان تمتزج بالارض والمكان، هي اوقات ولحظات مخيفة وقاسية عشناها ولكنها لحظات فارقة امتزجنا فيها بالوطن وقدرنا معنى ان يكون لك ارض ووطن وبيت وأويك.

تلك السحابة السوداء والاجواء المحيطة تركت احساس يثقل على الصدر وانه في القلب، لحظات و اوقات عشناها وتعايشنا معها لم نكن نفكر يوماً ان تحدث، فترات ارتفعت فيها اصوات المآذن بغير اوقاتها ليس اعلانا للصلاة ولكن من اجل الجهاد، لحظة تجمد فيها الزمن وثقلت فيها الحركة وشل فيها التفكير فالموت قادم، بنفس الموقع كان عندما صرخ بوق المصفاة (الزيتي) بغير اوقات الدوام، كانت ايضا من الاوقات العصيبة فلا نسمع صوته بغير اوقاته الا معلنا لفرحة العيد او لقدم كارثة تعني الموت . الموت كان تاركا ظلالة في كل مكان وآلة الحرب والدمار كانت في اعلى وثيره لها تعمل بهمه أعتقد وبتفاني من أجل حصد اكبر قدر من الارواح والحق اكبر قدر من الخراب والدمار حتى تتحقق السعادة لنوع من البشر تلذدوا بقتل الاخرين والابرياء .

شيان كنت أخلج منهما فترة الحرب، ان انظر الى صورة الشهيد او أن أكل لدرجة الشبع، وتعمق شعوري بعدم قدره على الاكل يوم قدوم الافواج النازحة القادمه من منطقة التواهي، كانت تأتي بالزوارق التي تنقل معها الفارين من آلة الموت، من هم الجريح ومنهم المدعور ومن هم الجائع، صورة ذلك المسن مازالت في مخيلتي، في زحمة القادمين وحركة افراد الطوارئ تحركت الى هناك، كانت هناك مجموعه من الممرضين واغلبهم من المتطوعين منتشرين بين تلك الاعداد، لفت نظري كان مستلقي على النقاله وحوله طاقم الاسعاف كأنه يلهث، أنفاسه متقطعه، توقفت وسألت اذا ماكان عنده مشاكل في القلب، رد صبي كان يجلس بالقرب كالدبيح والنازف بغير جرح ولكن جرحه كان عميق بعمق المأساة وبصوت ضعيف واهن يكاد يكون مسموع قال : انه جائع، كنا في حصار اكثر من ثلاثة ايام، نفذ كل ماكان لدينا من طعام ولم نتمكن من الخروج ولم يحتمل هو، لم استطع مواصلة الاستماع لان كل ما في داخلي كان قد شل فقدت القدره على التركيز والادراك، ان يموت احدهم جوعا في عدن، عدن الحبيبه الكريمة المعطاءه، عدن المرسي لكل لاجئ ومصدر رزق لكل جائع ان يموت اهلها من الجوع، سمعت واستقبلنا جنث لأناس تهدمت بيوتهم فوقهم من جراء القصف العشوائي على المنازل، وجرحى مدعورين نجوا من موت محقق يحكون هول الدمار الذي لحق بمناطقهم، وهناك من حصدوا برصاص قناص لم يسلم منهم حتى الاطفال والنساء والشيوخ وأناس ماتوا لنقص الدواء والرعايه الصحيه وانتشار الأوبئه، تلك هي الحرب وتلك ماكنتها وتلك هي ضربيتها، ولكن ان يحاصر مدنيين حتى الموت جوعا فذلك منتهى القسوه.

صحيت من دهولي على صوت احدهم يقول : دكتوراه، دكتوراه هناك امرأه فقدت الوعي وقبل ان تفقده التفت ألي وقالت: أولادي أمانه لديك، أخذت الاولاد ووضعتهم في قسم الاطفال، سألته هل تقرب لك، قال : لا هي احدى النازحات جاءت بالزوارق وكان يبدو عليها الاعياء الشديد، اخشى ان تموت ولايعلم عنها شيئاً كنت قبل ذلك استغرب عندما اسمع الحكايات عن حرب لبنان وكيف ان الحرب كانت سببا في تفريق وتشتيت الكثير من الاسر ولااستطيع ان استوعب ذلك، فأوضح لي ما يمكن ان يحدث، قد تموت هذه المرأه ولا احد يعرف عنها شيئاً ولاعن اطفالها وهويتهم، قد يدعى احدهم بمعرفتهم ويأخذ الاطفال، كثير من الوسوس والهواجس بدأت تتنابني، استجمعت ماتبقى لدي من قوة بعد الصدمه التي تلقيتها واخذت محدثي

واسرعت الخطى باتجاه قسم الاطفال وقتها كانت هناك اصوات ونداءات تقول : سمعنا ان زورقا قد انضرب وان هناك نازحين قد تم استهدافهم على الرصيف بالقذائف بشكل مباشر، ربما تأتي اعداد من الجرحى، في الطريق الي القسم صادفت بعض من الجرحى على الكراسي المتحركة ممن هم مرقدين لدينا خرجوا باتجاه الطوارئ يستطلعون مايجري اخرجتهم الاخبار، وكان لسان حالهم يقول : آه لو لم نكن مقبدين .

قبل ان نصل الي قسم الاطفال مرينا على قسم النساء، سألت عن المرأة كانت هناك مستلقية على النقاله بانتظار سرير حتى يفضى لكثرة الحالات وحولها الممرضات وطبيب يبذلوا جهدا لمحاولة اسعافها توجهت الي قسم الاطفال اسأل عنهم دلني عليهم الشخص الذي معي وكانوا ثلاثة اصغرهم رضيع عمره تسعة اشهرو كان بحضن امرأه تحاول تهدئته تسمرت في مكاني وأنا ارى الطفلين، بضعة امتار تفصلنا عن العالمين، انها الطفولة بكل براءتها ترسل رسالتها وتقول دعونا بسلام لماذا تسرقوا ضحكاتنا واولقات لعبنا وتصادروا طفولتنا ،كانت الطفله على المرجيحة واخوها يدفعها معطينا ظهريهما وكأنهما يقولان للعالم أتركونا بأمان وسلام ،لماذا يقتلوننا الكبار ؟ اقتربت منهما فاحسا بنا بدأ الخوف يرسم بعيون الولد اما البنبت فأجهشت بالبكاء وخاصة عندما رأت الذي بجانبها وكأنها خافت ان يأخذها مرة اخرى الي العالم القبيح ، بدأت تقول كلام مخنوق بالعبرات لم افهم منه غير كلمة ماما، احتضنتهما وطمنتتهما وبكيت في سري .

سألتهما عن اسميهما وطلبت من ممرضه ان تعتني بهما وان تحرص على الرضيع الذي في حضن المرأة الاخرى، توجهت ثانية الي قسم النساء، كانت المرأة تستعيد وعيها بدأت تقول : اولادي،اولادي، قلت لها تظمني، سألتها من انت، اخبرتني عن اسمها واسماء اولادها وقالت :ابوهم كان مقرر ان يلحقنا على الزورق التالي. بدأت تتعب، قلت لها تظمني اولادك بالحفظ عندها بدأ عليها الاطمئنان وأغمضت عينيها مواقف كانت اكبر من ان نستوعبها ولم نعيشها الا في الافلام .

خرجت من قسم النساء وتوجهت مرة اخرى الي قسم الطوارئ , وقيل ان اصل بدأت اسمع اصوات صراخ و اسرعت الخطى و تبين انها لطفله تصرخ بشكل هستيري مناديه والدها، كان هناك جرح ينزف في كفها وكانت في حالة خوف هيسيري رافضه ان يقترب احدا منها او يضمد جراحها صارخه : بابا،بابا وكانوا يقولون لها دعينا نعالج جرحك لكنها رفضت قائلة: لالا،بابا،بابا ، اولا يأتي بابا ، لاحد يلمس الجرح حتى يأتي بابا ،كانت حركاتها وكأنها مازالت تحت تأثير شيئا يمكن ان يرمى عليها مره اخرى، المسكينه كانت في حالة دعر وهول الصدمه التي تعرضت لها وتضاعف خوفها من منظر الاعداد من الجرحى حولها ، اقتربت منها اطمئنتها وقلت لها حبيبي دعيني ارى جرحك لاتخافي ولكنها كانت في حاله هستيريه و تركتها وتحركت باتجاه غرفة العمليات وفي مخيلتي صورة ذلك الطفل الذي تم قنصه وهو يلعب امام منزله ، في طريقي صادفت احد الجراحين واخبرته ان هناك طفله وجرحها ينزف وهي في حالة خوف هستيري وطلبت منه اخذها الي غرفة العمليات واعطائها شيئا حتى تهدأ ليتمكن من معالجة جرحها، اخبرني انه تم استقبال طفل اصابته في الصدر، واصلت الي غرفة العمليات أستطلع عن عدد الجرحى الذين هناك ، فتحت الباب وفي اول غرفة وهي للعمليات الصغرى كان السرير عليه امرأه مستلقية وكان الطاقم في حالة حزن وحيره من يخرج ليخبر ولدها، قال طبيب مقيم : انا ، وخرج ، لحظات وسمعنا صوت بكاء حاد، خرجت الي الممرلاجد شابا مرتمى على الارض يبكي كطفل اخذ منه شيئا يحبه يضرب بيديه ورجليه على الارض قائلا :كيف ماتت؟ كانت هناك ،هناك كنا نتكلم بانتظار الزورق , كيف ماتت وماذا حدث ؟ حتى هو لم يستوعب الذي صار، الكل كان في حالة دهول ، منظره كان مؤلم ، بدأت الدموع في عيني الطبيب وبدأت الممرضات بالبكاء.

هكذا كان يتفاعل طاقم العمل ، يواسي ويبكي وينفعل ، في احدى المرات بكينا وضحكنا بمرارة في آن واحد لقصة ذلك الشخص الذي حرص على أخذ جثة اخيه الشهيد عند اخلاء احد المستشفيات وعندما وصل بها اكتشف انها جثة لامرأة ، هكذا كنا نتفاعل وتغلبنا مشاعرنا وعواطفنا امام بكاء مولود جديد في عنبر

الولادات بعد ان كنا بكينا شابا او كهلا في الطوارئ ، وبين الطوارئ وقسم الولادات كانت تتجلى حكمة الخالق بين الاخذ والعطاء ، بين الحياة والموت ، بين الروح التي نفخت وبين الارواح التي استرخصتها يد البشر من جباريها.

صوت بكاء الشاب كان يملأ المكان تركته وحوله من يواسيه وتحركت باتجاه البوابة ، كنت اشعر بالاختناق ، عند البوابة قابلت احدهم يحمل السلاح نظر الي مسلما تيقن انني لم اعرفه قال: دكتورة انا فلان، نظرت اليه بتفحص ، فعلا انه هو فتكونت آه كبيرة بداخلي بكبر المكان ، لقد تعي ، تغيرت ملامحه اين منه ذلك الطفل الذي بداخله ، سرقوا احلامه ومستقبله فحمل السلاح مدافعا عنها. زاد شعوري بالاختناق واصلت باتجاه الخارج، كان الوقت نهارا ولكن كل ما حولي كان ظلام وكان الليل قد استبق الزمن وارسى ظلاله على المكان، كل شئ حولي كان ملتحف السواد.

سواد في كل مكان وتلك السحابة السوداء تبعث على الاختناق ، نظرت الى الاعلى اتابع سيرها وقع نظري على المبنى الواقع على التله فنظرت الى قريبتني النازحه عندنا كما نظرت الى قريبتني الاخرى التي كانت منهمكة بقلابة سميوسة رمضان في حوش الدار وذلك من اجل تقليل استهلاك اسطوانة الغاز التي تكاد تكون معدومة فدعناها بطباخة تعمل على الكيروسين حين لم تسعفنا الطباخة الكهربائية للانقطاعات المتكررة للكهرباء، قلت : تعرفوا ان في اول زيارة لما يعرف برئيسنا وقتها سكن في ذلك المبنى الواقع على التله وكان لدينا وقتها كلب روسي صغير احضره احد الطلبة معه فرفض والده استقباله في البيت فأهدانا اياه حتى يتربى في حوش الدار ، ولما كان كلبا مدللا رحمانه وواصلنا تدليله ، فكان له وجبات خاصة وفرشاة خاصة ومنشفة خاصة واولقات استحمام يعرفها عندما اناديه يأتي مسرعا ويستلقي في زاوية معينة اكون وقتها ممسكه بخراطيم الماء وابدأ بعملية غسله بالشامبو المخصص له وتنشيفه، هذا المنظر ربما كان غريبا على الحرس الذي كان متمركزا في انحاء الجبل والتله المطله على بيتنا والذي كان يراقب ما يجري حوله بدقة ، ربما هذه المعلومه نقلها العسس لقائدهم وتم التبليغ ان في هذه المنطقة قوم يقومون بغسل كلابهم بالشامبو فكان الفرمان بقطع الماء على البشر قبل الحيوان ، تدريجيا وجدنا انفسنا لا نجد حتى قطرة الماء التي نستحم بها وعرفت بوزة الماء طريقها الى بيتنا كما عرفت الان شولة الجاز طريقها الى مطبخنا بعد ان كانت من تراث جدتي .

توالت علينا الصدمات في معيشتنا ومصادر رزقنا ، تم احتكار الوظائف لفئة من الناس دون سواهم ، ظهر الشباب العاطل عن العمل ومنهم المتطرف، انهارت كثير من مؤسسات الدولة بما فيها التعليم والصحة وضاع الامن في متاهات الرشوة والنفوس المشتراة ، كان هناك عمل ممنهج لتخريب الدم وفساد النفوس وتغيرت طبائع الناس نتيجة لضيق الحال والقهر والاعتداء على الكرامة من قبل متنفذين، اختفت ملامح المدنية وسلوكياتها وتغيرت معالم المدينة وتغربنا عن المكان وهناك من تغرب بحثا عن مصدر الرزق والكرامة في وطن آخر حين ضاق به الحال ومنعت عنه الفرص وسدت في وجهه الابواب التي فتحت للقادمين الجدد واستبيحت البلاد وتم اغتيال مدينة ووطن وظهر جيل من الشباب مغيب مارست عليه كل الوسائل لاجراة بذلك الشكل ، جيل فاقد للانتماء ، هكذا كنا نعتقد حتى توالت الصدمات وجاءت صدمة الحرب وظهر الشباب وظهرت المعادن وظهرت النفوس التي كنا نظن انها واهيه خاليه لا هدف لها تبين انها تحمل معنى كبير معنى الوطن رغم ان هناك من ظلوا على نفوسهم الخربة المخربة والدمم المشتراة وهم قلة ولكن الغالبية حملوا السلاح .

كانت اعيننا في البداية تبكي عندما كانوا يأتون الينا محمولين، منهم الجريح ومنهم من اسلم الروح لبارئها وسلم الامانة، كنا نبكي وخاصة عندما كنا نرى شباب في عمر الزهور كانت ضحكاتهم من يومين تملأ المكان مقبلين على الحياة جل اهتمامهم هو كيف يصفوا شعرهم ويعتنوا بهندامهم نجدهم وقد نقلوا الينا اجساد محمولة او جاءوا شعث الشعر عليهم غبار المعارك ، نجدهم وقد كبروا فجأة يحملوا الوطن على اكتافهم وجراح في اجسادهم ، الكثير منهم يسأل عن عمق اصابته وعندما نطمئنهم يقولوا : لسنا بخائفين ولكن هل سيلتئم الجرح سريعا ، وعندما نستغرب يقولوا هذا وطن.

كنا نبكي ولكن شيئا فشيئا جفت وتحجرت الدموع في المآقي وبقينا نلتفت لبعض نتكلم ونواسي بعضنا بالنظرات ونبكي من غير دموع فالقلوب كانت تنزف دما من هول ما سمعنا ورأينا , و صار حتى بعض الذين يأتون ويجلسون في الممرات بين العناير يحكون وكأنهم يحكون عن نزهة , كيف تم قذفهم بالهاونات وكيف ان افراد من عائلتهم قد اصابوا او ان هناك جار لهم قد فقد وكان لسان حالهم من هول ما جرى ويجري يقول حمدا لله نحن مازلنا احياء.

من اللحظات المؤثرة ايضا بخلاف اخبار الموت والدمار كان عندما يرن جرس التلفون ويكون على الخط جار او عزيز يخبرك انه نازح ويودعك , لحظات لم نكن نعلم فيها من هو المودع الراحل ام الباقي في المكان , قد تكون رحلة يجتازوا فيها طرق غير آمنة تعرض حياتهم للموت والخطر ومن بقى وخاصة في الايام الاخيرة حين كانت القذائف تتساقط بشكل عشوائي كان الكل مسلم امره الله راجيا منه السلامة طالبا النجاة , الكل لا يعرف على من يكون الدور ولا نعرف مصير من رحل تقطعت بنا السبل حتى عن اهالينا واصدقائنا وانقطعت وسائل الاتصالات عن من هم خارج حدود المكان , هي الحرب والحصار وفي كل ذلك الظرف المظلم كان هناك خيط من النور تمثل بتكاثف من تبقى , سألنا عن بعضنا واسينا بعضنا , تقاسمنا اللقمة وارسلنا جزء مما معنا لمن علمنا انه محتاج رغم شحة الموارد والامكانيات ولم نحقد على من تركنا نازحا بل سلمنا عليهم مودعين وبكينا على فراقهم ودعينا لهم بسلامة الوصول في احدى الليالي واصوات القذائف والمدافع ترج المكان وتجرح السكون جاءت البنات الى غرفتي وفي اعينهن تقرأ الخوف وترى الدعر وقلن: بعض من جيراننا نزحوا، قلت : يعني ننزح، قلن: هل ننتظر وحتى يقتلوننا , هل يستطيع خالنا ان يرسل لنا فيزا للسفر اليه، قلت يعني نخرج لاجئين، قلن: لا، زيارة ، المهم دار حوار بيننا واستلقت واحدة الى جوارى وبدأت بالبكاء ، قلت لها ارجوك لا تبكي لا تشعريني بالعجز وعدم القدرة على حمايتكم ، هل فكرتوا معنى ان نكون لاجئين، وقتها تذكرت كل الذين اجبرتهم الظروف على الخروج مع اقرب زورق هربا من ظروف قاسية لتلقي بهم الزوارق في اماكن لا تخلو من القسوة , تذكرت زميلتنا التي هربت بأسرتها قاصده جبوتي فتعطل بهم ماطور الزورق في عرض البحر فقرر الربان ان يترك الامر للرياح تأخذهم الى المرسى فوجدوا انفسهم في ارض الصومال, تذكرت العالقين الذين تقطعت بهم السبل وكانوا في معاناة لا تقل عن ظروف الناس الذين واجهوا الحرب واضطر بعضهم لتحدي كل الصعاب والوصول الى الوطن رغم ظروف الوطن.

كل تلك الظروف تذكرتها ولكني في النهاية شعرت اني مسؤولة عن حماية الجميع ، فقلت : اذا كان لا بد من الخروج والنزوح فليكن نزوح داخلي ، سوف ارتب لكم كل شيء, وبامكانكم الرحيل ، فقالوا: ارتب لكم وارحلوا, وانت؟, فقلت : لا, سوف اودعكم وابقى هنا, قالوا تبقي لوحداك , فقلت: لا ، سوف ابقى في المستشفى, فقالوا : المستشفيات مستهدفه, فقلت: لست افضل من الشباب الذين يواجهون النار والموت، فقالوا: لا، معا او لا، فقلت اذا اهدأوا واستعينوا بالله هو الحافظ وهو الحامي وسيأتي الفرج باذن الله وعدن سوف تكون بخير ، قولوا ياالله، قالوا: ونعم بالله.

الشباب، الشباب ، كانوا اشرف الجميع ، افضل الجميع رغم فكرتنا السابقة عنهم ، هبوا وحملوا السلاح لأول مرة ، خرجوا بصدور عارية وارجل حافية ورؤوس مكشوفة ليحموا الارض والاهل والعرض، الغالبية غير منتمين لاي حزب او ملبين او مطيعين لاوامر سيد او قائد، هي الارض والعرض.